مـوكـب النصـر

كان الأمير حنا - أو كما كانوا يسـمونه حنا القبادوقى، نسـبة إلى أصـل موطنـه قبادوقيا فى آسـيا الصغرى - أحـد المغامرين الكثيرين الذين كانوا يستولون على أمور الدولة فى عهد الإمبراطور يوسـتنيانوس. كان رجلًا لا تقـف مطامعه عند حد، ولا يتردد فى وسيلة توصله إلى أغراضه.

كان شـرهًا إلى السـلطان والمـال، جعل كل حياتـه لاقتناص فرائسـه والإيقـاع بأعدائـه، لا تأخذه فى ذلك وخـزة من ضمير، ولا يرجعـه عن عزمه تورع عن جريمـة. وكان مقدامًا فى الحروب كأنه شـهاب ينقض على العدو، لا يبالى ما وقع فى سبيله، صارم القلب، لا تهزه رحمة وهو يخوض الدماء، واسع الحيلة، لا تخيب له مؤامرة ينصبها ويحكم تدبيرها، فكان الإمبراطور يلجأ إليه فى الملمات، ويؤثره لما أنس فيه من شـدة البطـش وإحكام التدبير؛ ولكنه كان مع ذلك هدفًا للعداوات الثائرة، والوشـايات والمكائد، يحـس أحيانًـا أن الأرض تتزلزل تحت قدميـه، والهلاك يترصد لـه عند منعطفـات الطرق وثنايا أبهاء القصور. ولهذا أحاط نفسـه بالجواسـيس والأعوان، يسـتعين بهم على كشـف احتيال أعدائه وحماية نفسه منهم، أو التخلص من شباكهم، حتى لم يخل القصر الملكى نفسه من هؤلاء الأعوان المخلصين.

وكانت الإمبراطورة من أشد أعدائه خطرًا عليه. فقد كانت تعرف ما عنده من قوة وخبث، ولكنها كانت لا تكشف له عن عداوتها، ولا تظهر له خوفها، بل كانت تدرايه وتتحامى التعرض له تعرضًا ظاهرًا، مكتفية بأن تتعقبه بجواسيسها وأعوانها لكشف خططه والاحتيال لإحباط ما يمسها منه من بعيد أو من قريب، فإنه لم يغب عن ذكائها ما فى مكاشفته بالعداوة من خطر على نفسها، وهو الرجل المخيف الذى يعرف ماضيها وأسرارها، فقد عرفها منذ كانت الراقصة الداعرة فى حانات القسطنطينية ومسارح لهوها، وكان أحد طلاب المجون معها وهى تجوب أنحاء الدولة الرومانية من شرقها إلى غربها فى تجارتها الدنسة.

استقبل الأمير حنا زائريْه العربيين بعد أن قدما إليه رسائل صديقه الحارث الغسانى ملك العرب بالشام، وجعل يتفرس فى وجهيهما بعد أن عرف ما أتيا له، فرأى فيهما شابين جميلين تبدو عليهما دلائل الشجاعة والتهور، وعلم أنهما إذا أخلصا له كانا من خير الأعوان على خوض الدماء أو مغامرات القصور، وطوى الرسائل بعد قراءتها وذهب فى صمته يتصور ما يمكن أن يستفيده منهما فى خططه والوصول إلى أغراضه، ثم نظر بعد حين إلى عمرو متبسمًا، وقال له فى صوت هامس بعربية واضحة: «ولكنك أيها الفتى لا تدرك ما فى وجودك هنا من خطر عليك».

فنظـر إليه الفتى ثائـر الأنفـاس وأجابه مندفعًـا: «أى خطر يا سيدى؟ إننى قد عشت كل حياتى ألاقى الأخطار».

فوضـع حنا يـده على كتف الشـاب معجبًا بجوابـه وقال له: «ولكنك تقول قولًا لا يسـمع من يسـمعه منك إلا أن يضحك ويتهمك بالجنون، إنك تزعم زعمًا لا يخطر على بال أحد أنه صادق».

فأسرع الفتى وأخرج من صدره لفافة وجعل يفكها فى لهفة حتى كشف الصندوق الذى فيها وأخرج منه عقدًا ورفعه إلى الأمير ناظرًا إليه وقال: «هذا هو دليلى إنها تعرفه».

ففتح حنا عينيه مندهشًـا، وأخذ العقد منه وجعل يتأمله، فمد الشـاب يده إليه وأمسـك بالحجر الأحمر الذى فى وسطه وقال فى حماسة: «اقرأ. اقرأ أليس هذا اسمها؟».

فرفع حنا الحجر إلى النافذة أمام الضوء وقرأ الكتابة المنقوشـة عليه، ثم رده إلى الفتى، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة.

وعاد إلى الصمت حينًا، والابتسامة تخبو عن وجهه شيئًا فشيئًا، حتى حلت محلها عبسـة صارمـة، فقبض فمه وغشـيت جبهته سحابة قاسـية، ثم أمال رأسـه قليلا وقال وهو ناهض: «سأراكما فى المساء فإنى ذاهب الآن إلى القصر استعدادًا لموكب الإمبراطور. ولكما إذا شئتما أن تقيما هنا أو أن تذهبا لرؤية الموكب ثم تعودا». ثم ابتسـم لهما ابتسامة خاطفة، وأسـرع خارجًا وتركهما ينظران إليه حينًا وهو يهمرج فى ضجيج سلاحه ودورعه.

وكان امـرؤ القيس يؤثر البقاء طلبًا للراحة بعد سـفره الطويل، ولكـن صاحبه لم يملك نفسـه من إطاعة لهفتـه أن يرى الموكب، لعل عينه تقع على الشـخص الذى ما برحت صورته تملأ ذهنه فى حله وترحالـه. فذهب معه امرؤ القيس مكرهًـا وخرجا إلى طرق العاصمـة، واتجها مـع الناس إلى حيث يتجهـون لرؤية الموكب العظيم.

كانـت القسـطنطينية العظمى ترتج وتموج بمـن فيها من وفود وجنـود، وتهتزو تطرب لما يطالعها مـن مواكب وأفراح يومًا بعد يوم، وليلة بعد ليلة، احتفالا بالنصر الباهر الذى أحرزته جيوش قيصـر فى أرض إيطاليا. لقـد عاد القائد المظفـر (بلزاريوس) من أرض رومة متوجًـا بإكليل المجد، بعد أن دانت له جيوش القوط، وبعد أن سـلب كنوزهم وغنم أموالهم، هؤلاء القوط الذين كانوا فزع رومة،والذيـن حطموا دولتها وأزالوا ملكها وثلوا عرش أباطرتها، قد صاروا رعية القسـطنطينية، وذلوا لسـلطانها، وعاد ملكهم فى ركاب القائد المنصور ليلتمس عفو قيصر، ويستظل بظله، كأن قومه لـم يكونوا من قبـل مبعث الرهبة للرومـان، تتحاماهم الجيوش، ويتزلف إليهم الأمراء، ويتوسـل إليهم الملوك بالهدايا والرشـى لكى يشتروا منهم سلامتهم وأمنهم.

سارت المواكب يتلو بعضها بعضًا قاصدة إلى الكنيسة العظمى التى بناها قيصر، كنيسـة صوفيا، وكانت فى أول رونقها وجدة نشأتها

لم يمض على تمام بنائها إلا سنتان، ووقف الناس ألوفًا مؤلفة يزدحمون على جوانب الطريق، ليحيوا قيصر العظيم فى ذهابه إلى الصلاة فى كنيسته الجديدة شكرًا لله على ما أنعم عليه من جمع أطراف الدولة وإعادة غربها إلى شرقها، حتى إذا ما طلعت طلائع موكبه علا ضجيجهم بالتحية، وهم يلوحون له بأوشحة زرقاء يشيرون بها إلى أنهم الحزب الأزرق شيعته وأولياؤه وأنصاره على عدوه وعدو زوجته، الحزب الأخضر.

وطلع الإمبراطور على الجموع يلبس حلة الملك الأرجوانية، وكان ينظر إلى الجموع المحتشدة ويومئ إليها بالتحية فى هدوء ووقار وعطف، وقد ركب عربته الحربية واقفًا فيها بقامته العالية وجسمه النحيف المتين البناء، وكانت عيناه الزرقاوان تلمعان بنور الزهو والسرور.

وكانت الإمبراطورة (تيودورا) إلى جانبه فى حلتها البيضاء الناصعة، وقد وضعت على رأسها تاجًا من الجواهر المؤتلفة، وجعلت فى عنقها عقدًا من اللؤلؤ النادر، وفى معصميها وحول ذراعيها أساور من الذهب والياقوت والزبرجد، ولكنها كانت تبدو مع كل هذه الحلى رشيقة فى قدها الضئيل. وكان وجهها الشاحب الجميل تعلوه نضرة من ماء الشباب، ولمعة مترقرقة من روح الحياة الفياضة وكانت عيناها السوداوان تبتسمان إلى الجموع المزدحمة وهى تحييها هاتفة بحياتها ومجدها فى حماسة وإعجاب.

وكان إلى جانبى العربة جماعة من القواد يأخذون الأنظار بأسلحتهم اللامعة ودروعهم الصفراء المتلألئة، وكان الأمير حنا أقربهم إلى الملكة، وقد وضع يده على جانب العربة، ومشى بقامته العالية وخطاه القوية ينظر أمامه نظرته الصارمة القوية.

ووقف امرؤ القيس وصاحبه عمرو بن قمية بين الجموع المحتشدة فى جوار الكنيسة وقد بهرت أنظارهما وخشع قلباهما لما أبصرا حولهما من آيات المجد والجمال التى لم يسبق لهما عهد بمثلها فى صحرائهما الهادئة.

وما كادت الإمبراطورة تقرب من موضعهما وتلتفت إلى جهتهما بعينيها الممتلئتين حلاوة وحياة، حتى صاح امرؤ القيس غير قادر على كبح نفسه: «أى عينين يا عمرو! إن فيهما لسحرًا».

فلم يجبه عمرو على قوله، لأنه كان عند ذلك مأخوذًا مضطرب القلب ينظر نحوها فى لهفة وشوق، وكأنه يريد أن يندفع إليها ويلقى بنفسه بين ذراعيها ونظر إليه امرؤ القيس، فرأى ما على وجهه من التحرك والوجد، فأمسك عن حديثه لحظة، ثم وضع يده على كتفه وقال ضاحكًا: «وما هذه الفتاة بأم لمثلك يا عمرو».

فوثب الفتى فى موضعه، كأنه يريد أن يتشبث بشىء يخاف فواته، ولم يملك نفسه أن صاح صيحة عالية غلبت الضجيج الذى يدوى حوله فقال: «هى. هى! إنها هى وحق مناة!».

وكانت العربة قد قربت من موضعهما فالتفتت الملكة عند ما سمعت هذه الصيحة العربية، واخترقت ببصرها الجمع الحاشد، تريد أن تنظر إلى صاحبها، فاندفع عمرو يخرق الصفوف فى حركة عنيفة، وجعل يصيح قائلا: «أماه! أماه!».

فقبض امرؤ القيس على ذارعه بقوة وجذبه إليه قبل أن تتجه إليهما أنظار الناس أو يفطنوا إلى ما يقوله صاحبه، ولكن عين الملكة كانت قد وقعت على الشاب، ولم تخف على امرئ القيس حركة اضطراب بدت عليها، وحمرة شديدة صبغت وجهها، وهى تتحرك فى مجلسها بجوار زوجها وترد التحية للناس بما استطاعت من تماسك وهدوء.

ولما بلغ الموكب باب الكنيسة، وقام الإمبراطور مستعدًّا للنزول، مالت الملكة إلى القائد حنا الذى فى جوارها وألقت فى أذنه كلمات، وأشارت له إشارة خفيفة إلى جهة الشاب العربى، وكان نظر عمرو لا يزال متعلقًا بالملكة يرقب حركاتها وتشوف إلى طلعتها، فلما رآها تكلم القائد صاح يخاطب صاحبه: «لقد عرفتنى»، ثم عاد فصاح مشيرًا إلى القائد: «أليس هذا هو الأمير؟ أليس هو حنا؟».

فالتفت بعض الواقفين من الروم إلى الرجلين الغريبين عند ما سمعاهما ينطقان باسم ذلك الأمير المعروف، فخشى امرؤ القيس أن يفتضح أمرهما، فأسرع فضرب بيده إلى ذراع صاحبه وجذبه بين الجموع ليبعد به إلى خلوة، لعله يجمع نفسه

إليه، فلقد طالما سمع بجواسيس قسطنطينية ووعورة مسالكها وفتكات أهلها.

وكانت الملكة فى أثناء ذلك قد قامت وراء زوجها الذى وقف فى انتظارها مادًّا يده ليساعدها على النزول، واتجه بها إلى باب الكنيسة بين صفين من الجنود فى عدة تامة من الدروع والسلاح، وسار القواد فى آثارهما راجلين إلا الأمير حنا، فإنه اتجه إلى بعض الجنود وأسر إليهم بكلمات، ثم عاد مسرعًا فدخل الكنيسة بين الصفوف التى ازدحمت بعد دخول الركب الملكى.

وأخذت أصداء الأناشيد تتجاوب وتتصاعد، ممزوجة بعطور الند والعود الفائحة فى أرجاء الكنيسة.

* * *